الهويـــــة والعنف

إ.د.عوض سليـــم خليفة
كلية الآداب / جامعة طرابلس

إن الكتاب الذي نقدمه للقراء في هذا العدد من المجلة يحمل عنوان : الهوية والعنف ، من تأليف الفيلسوف وعالم الاقتصاد الهندي،**أمارتيا صن**.الأستاذ بجامعة هارفارد والحائز على جائزة نوبل للسلام في الاقتصاد عام 1998م ، وله عدة مؤلفات لعل أشهرها كتاب : التنمية حرية ، ترجم إلى اللغة العربية ، والكتاب الذي نقدمه لكم ترجمته سحر توفيق ، وهو من إصدارات سلسة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ، يحمل رقم 352. ظهر في شهر يونيو 2008م .والكتاب صغير الحجم لا يزيد عدد صفحاته عن 206 صفحات ، ومع ذلك فهو يتضمن موضوعات في غاية الأهمية والخطورة ، تتناول معظم قضايا العالم المعاصر بأسلوب علمي رصين وشيق .

والكتاب،كما يقول مؤلفه :أنه نتاج محاضرات ألقاها في عدد من الجامعات العالمية في أوروبا، وأمريكا، واسيا ، وما ترتب عليها من نقاشات مع عدد من مفكري العالم في تلك الجامعات، ثم بلورها وأخرجها في هذا الكتاب المهم .

محتويات الكتاب :

يتكون الكتاب من تمهيد، ومقدمة، وتسعة فصول ،ويقرر المؤلف في التمهيد أن كثيراُ من القضايا الاجتماعية والسياسية المعاصرة تدور حول ادعاءات متضاربة لهويات يائسة تختص بجماعات مختلفة ،حيث إن مفهوم الهوية يؤثر ،بوسائل كثيرة في أفكارنا وأفعالنا .

ثم يؤكد المؤلف على أن أحداث العنف والاعتداءات في السنوات الأخيرة ، واكبتها فترة من الفوضى والاضطراب ،وكذا صراعات بغيضة ،وكثيرا ما ينظر إلى سياسات المواجهة على صعيد الكوكب باعتبارها نتيجة طبيعية للانقسامات الدينية أو الثقافية في العالم . ونلمس بوضوح مدى اهتمام المؤلف وقدرته البارعة في الربط بين الهوية والعنف خلال فصول الكتاب.

ويقرر المؤلف في مقدمة الكتاب أن من أهم مصادر الصراعات الكامنة في العالم المعاصر الزعم بأن الناس يمكن تصنيفهم تصنيفا منفردا مؤسسا على الدين، أو الثقافة ،ويضيف إلى ذلك أن العالم كثيرا ما يؤخذ على أنه مجموعة من الأديان(أومن "الحضارات " أو "الثقافات")،مع تجاهل الهويات الأخرى التي يتمتع بها الناس ويقدرونها،والتي تتعلق بالطبقة،والنوع ،والمهنة،واللغة،والعلم،والأخلاق ، والسياسات،وهذا التقسيم المنفرد في رأي المؤلف يعتبر أكثر قابلية لإثارة المواجهات من عالم التصنيفات المتعددة والمتنوعة التي يتشكل منها العالم الذي نعيش فيه.

أما بالنسبة لفصول الكتاب التسعة فإننا نكتفي باستعراض بإيجاز ما جاء في الفصول الأربعة الأولى لما تتسم به من خطورة ، وما تتضمن من جوانب ما يدور بيننا ،وما يجري حولنا ،وما يخطط لنا في المستقبل القريب أو البعيد .ففي الفصل الأول يجادل المؤلف بقوله أنه في حياتنا العادية ، نرى أنفسنا أعضاء لمجموعة متنوعة من الجماعات .ونحن ننتمي إليها جميعا . فكل إنسان له مواطنة ،ومكان إقامة ، وأصل جغرافي ،ونوع جنسي ،وطبقة ،وانتماء سياسي ،ومهنة،ووظيفة ،وعادات لطعامه، واهتمامات رياضية ،وذوق موسيقي ،والتزامات اجتماعية ..الخ ،وكل هذا يجعلنا أعضاء في جماعات متنوعة . وكل من هذه الجمعيات التي ينتمي إليها الشخص في وقت معا، تمنحه هوية معينة ،وليس فيها ما يمكن أن يؤخذ على أنه الهوية الوحيدة للمرء ، ولا التصنيف الوحيد لعضويته في المجتمع . وفي هذا المجال يشير المؤلف إلى أعمال الشغب والأحداث المروعة التي شهدتها شبه القارة الهندية بين الهندوس والمسلمين خلال الأربعينيات من القرن الماضي ، وما حدث من تغيرات كبيرة في الهوية التي أعقبت سياسات التقسيم (بظهور الهند وباكستان كدولتين منفصلتين على أساس ديني) . إن عدداً كبيرا من هويات الناس ، هوياتهم كهنود، أو كأبناء لشبه القارة ،أو كاسيويين،أو كأبناء للجنس البشري،بدا إنها تتنحى لتأخذ مكانها هوية متعصبة لإحدى الطوائف ،الهندوس أو المسلمين أو السيخ والمذبحة التي تلت ذلك من أسبابها الأساسية سلوك القطيع العنصري الذي استخدم لتوجيه الناس إلى اكتشاف "هوياتهم القتالية التي تبنوها مجددا من دون إخضاع هذه العملية لتأمل نقدي .الناس من أنفسهم أصبحوا فجأة مختلفين .

ويضيف المؤلف إلى ذلك قوله أن وهم هوية مفردة و انعزالية وأكثر إثارة للشقاق من عالم متسع من التصنيفات المتعددة والمتنوعة التي تسم العالم الذي نعيش فيه بالفعل .والضعف الذي يكمن في صورة هوية منفردة لا اختيار فيها هو الأفكار الهائلة لقوة وقدرة تفكيرنا الاجتماعي والسياسي ،وإن وهم المصير المقدور ينتزع منا ثمنا باهضا .

وفي الفصل الثاني تناول المؤلف موضوع إدراك مفهوم الهوية ، وأشار إلى أنه يمكن أن يكون الانتماء لعضوية كل واحدة من الجماعات مهما لغاية ، اعتمادا على سياق معين، وعندما تتنافس هذه الجماعات لجذب الانتباه ونيل الأولوية التفضيلية فيما بينها (وليس هذا ضروريا دائما)،فعلى الفرد أن يقرر الأهمية النسبية التي يعلقها على كل هوية بمفردها ،وهو ما سوف يعتمد مرة أخرى على السياق المتصل بها .

ويقرر المؤلف في هذا الخصوص أن هناك قضيتين متمايزتان أمامنا في هذا الشأن : الأولى ،هي الاعتراف بأن الهويات ذات بنية تعددية متينة ،وأن أهمية هوية واحدة لا تتطلب بالضرورة محو أهمية الأخريات .والثانية :أنه لابد للشخص أن يقرر على نحو صحيح أو ضمني اختياراته فيما يتعلق بالأهمية النسبية لانضمامه في سياق معين ، إلى الولاءات المتباينة والأولويات التي يمكن أن تتنافس من أجل أن تكون لها الأسبقية.

وتضمن الفصل الثالث نظرية صراع الحضارات التي ظهرت في الغرب التي دعا إليها عدد من المفكرين ، لعل أشهرها كتاب صمويل هنتنجتون المعروف . ولقد كثر الحديث عن نظرية الصراع بين

الحضارتين "الغربية" و" الإسلامية". ويرى المؤلف أن فرضية هنتجتون من الصعب دعمها تجريبيا . فالتسامح والحرية هما بكل تأكيد من بين الإنجازات المهمة لأوروبا المعاصرة ،ولكنه يجادل في نفس الوقت بأن العالم الغربي لا يمتلك حقوق ملكية الأفكار الديمقراطية فبينما الأشكال الدستورية العصرية من الديمقراطية جديدة نسبيا في كل مكان ، فإن تجليات الديمقراطية في شكل المشاركة والمنافسة العامة قد انتشرت عبر العالم .

ويهتم المؤلف في الفصل الرابع من الكتاب بموضوع الانتماءات الدينية والتاريخ الإسلامي . وهذا الفصل من أكثر الفصول خطورة وأهمية من حيث تناوله لقضية الإرهاب ومحاولة الغرب إلصاقها بالإسلام .

ويشير المؤلف إلى أن تزايد التعود على استخدام الهويات الدينية باعتبارها المبدأ الرئيس أو الوحيد لتصنيف أهل هذا العالم قد أدى إلى كثير من الفظاظة في التحليل الاجتماعي . لقد كان هناك بشكل خاص افتقاد كبير للفهم بسبب الفشل في التمييز بين (1)الانتماءات والولاءات المتعددة لدى الشخص الذي يتفق أنه مسلم، و(2) شخصيته الإسلامية بشكل خاص.

إن الهوية الإسلامية يمكن أن تكون واحدة من الهويات التي يراها الشخص كهوية مهمة .ولكن من دون أن ينكر أن هناك هويات أخرى ربما تكون مهمة أيضا . إن ما يسمى غالبا " العالم الإسلامي " .فيه بالطبع أغلبية من المسلمين ، ولكن أشخاصا مختلفين كلهم مسلمون يمكن أن يكون بينهم ،بل وهناك بالفعل تنوع كبير في نواح أخرى ، مثل القيم السياسية والاجتماعية ، الانجازات الاقتصادية والثقافية والارتباطات المهنية ،والفلسفية والموقف من الغرب ، وهكذا .

ويذكر المؤلف عدداً من الأمثلة من التاريخ الإسلامي على التسامح الديني عند المسلمين منها: أنه عندما أجبر الفيلسوف اليهودي ابن ميمون على الهجرة من أوروبا المتشددة في القرن الثاني عشر الميلادي، وجد ملجأ متسامحاً في العالم العربي، ولم يكن مضيفه الذي أعطاه منصباً محترماً ومؤثراً في بلاطه بالقاهرة، إلا الامبراطور صلاح الدين ذاته الذي لا يمكن أن نشك في إسلامه، بعد دوره الباسل في مقاومة الحملات الصليبية دفاعاً عن الإسلام. كما عدد المؤلف أمثلة أخرى على ذلك في الأندلس وبغداد وغيرها.

وأشار إلى أمثلة عن دور العلماء المسلمين ومدى إسهامهم في الحضارة المعاصرة مثل فاز لوز رحمن خان المهندس الأمريكي من أصل بنغلاديشي وهو صاحب النظرية الأنبوبية، وقد استخدمت هذه النظرية في بناء مركز التجارة العالمي مما يبرهن على إبداع هذا المهندس وعبقريته، كما صمم أيضاً العديد من المباني المرتفعة مثل: برج سيرز الذي يبلغ ارتفاعه 110 طوابق، كما صمم مطار الحجيج في جدة بالمملكة السعودية، وغيرها، كما أشار المؤلف إلى محبوب الحق عالم الاقتصاد الباكستاني الذي نال شهرة في العالم كله، وهو مبدع نظرية التنمية البشرية، ومؤسس تقرير التنمية البشرية كما لم ينس ذكر عبد القادر خان العالم ومهندس المعادن الباكستاني، ومؤسس البرنامج النووي الباكستاني.

ومن جهة أخرى، يجادل المؤلف في هذا الفصل بقوة الأسباب التي تجعل من المهم للغاية اليوم أن ننتبه إلى الفرق بين (1) رؤية المسلمين حصرياً أو غالباً على أساس ديانتهم الإسلامية و(2) فهمهم بشكل أوسع بناء على انتماءاتهم الكثيرة التي تشمل هويتهم الإسلامية ولكنها التي لا ضرورة لأن تلغ الالتزامات التي تنبع من اهتماماتهم العلمية، والتزاماتهم المهنية، وإسهاماتهم الأدبية أو انتماءاتهم السياسية .

ومن الأهمية بمكان أن نشير بإيجاز إلى الأسباب التي ذكرها المؤلف في الآتي:

1ـ أهمية معرفة ماذا يحدث إن وضوح الفهم له أهمية في ذاته، كما يمكن أيضاً أن تكون له آثار بالغة في الأفكار والأفعال، وعلى سبيل المثال، حتى عندما تدعي عصابة من الناشطين أن أعمالهم الإرهابية هي شكل خاص مقدرة نتيجة وصايا إسلامية، ومن ثم فهم يحاولون توسيع قاعدة الأوامر الدينية بشكل جذري، يمكن بالتأكيد أن نشك في ما إذا كانت هذه هي الحال حقاً. وسوف يكون خطأ واضحاً وهائلاً أن نسير في ركاب فشلهم في رؤية الفرق بين الهوية الإسلامية وهوية أن يكونوا مكرسين للإرهاب في ما يرون أنه قضية الإسلام.

2 ـ أن الفارق له أهميته في المعركة ضد تسييس الدين، والذي يتمثل ليس فقط في النمو السريع للإسلام السياسي بل أيضاً بالسرعة التي يتقدم بها تسييس الديانات الأخرى مثل :حركات تجديد الأصولية في المسيحية أو التطرف اليهودي أو الحركة المنبثقة من الهندوسية.

3ـ يتيح لنا التمييز أن نفهم بشكل أوفى ماذا يجري داخلياً في بلدان يضعها غير أبنائها داخل صندوق ديني ما، مثل ما يسمى بالعالم الإسلامي، وكان ذلك التعريف يمكن أن يشرح بشكل شامل التطورات الثقافية والفكرية الجارية هناك . من المهم أن نعرف أن الكثير من البلدان التي تعتبر دولا إسلامية رسميا تخوض صراعات سياسية لا يعتمد الكثير من أبطالها ،حتى وهم مسلمون صالحون من الوجهة الدينية ،لا يعتمدون في جدلهم فقط على هويتهم الإسلامية .

4 ـ والسبب الرابع والأخير لتوكيد أهمية هذا التمييز هو أنه غالبا ما يفوت الآخرين بشكل كبير ـ وأحيانا يفوتهم كاملا ـ في بعض "المعارك ضد الإرهاب " التي تشن حاليا . وهذا يمكن أن تكون له ، أثار سلبية مضادة للغاية .وعلى سبيل المثال، إن محاولات محاربة الإرهاب من خلال توظيف الدين لم تكن فقط غير فعالة لكنها أيضا وبكل تأكيد تعاني سوء توجيه فكري خطير .

وبعد هذا الطرح المتميز من قبل المؤلف يشير في هذا الفصل إلى قضية في غاية الخطورة ،لأهميتها نطلع القارئ عليها وهي القضية المتعلقة بشراء الهويات الإسلامية ـ بحسب رأي المؤلف ـ حيث يقول "لو كانت هوية المسلم الوحيدة هي كونه مسلما، فإن كل الأحكام السياسية والأخلاقية للشخص، بالطبع لابد أن تكون متصلة على وجه التخصيص بتقييمات دينية. هذا الوهم الإفرادي هو الذي يكمن وراء محاولة الغرب وبخاصة المحاولة الأنجلو أمريكية لتجنيد الإسلام في ما يسمى بالحرب ضد الإرهاب، إن الرفض وعدم الرغبة في التمييز بين (1) تعدد انتماءات المسلم وارتباطاته (2) هويته الإسلامية على وجه الخصوص، وهو ما أغرى قادة الغرب بخوض معارك سياسية ضد الإرهاب من خلال سبيل شديد الغربة لتعريف _أو إعادة تعريف_ الإسلام.

إن ما يحتاج إلى التعريف ليس قط أن هذا التناول الإفرادي لم ينجز شيئاً حتى الآن، بل أيضاً أنه لا يمكن توقع أن يصل إلى أي منجزات بما نعرفه عن الفروق بين المسائل الدينية من ناحية، والأمور الأخرى التي على المسلمين مهما كانت درجة تدينهم أن يتخذوا فيها قراراتهم الخاصة، من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن الحدود بين المجالين من الصعب رسمها بدقة، فإن مجال الحرمان الديني والاتهام بالكفر لا يمكن مده كثيراً ليتجاوز المعتقدات المركزية للقواعد والممارسات الإسلامية المعروفة. ونتوقف عن عرض محتويات الكتاب عند هذا الحد، ونكتفي بعرض موضوعات الفصول المتبقية على الرغم من أهميتها البالغة كما سبق القول، فالفصل الخامس يحمل عنوان (الغرب وضد الغرب) والفصل السادس عنوانه: (الثقافة والأسر) والفصل السابع (أصوات العولمة) والفصل الثامن (التعددية الثقافية والحرية) ، أما الفصل التاسع والأخير فيحمل عنوان (حرية التفكير) وهي كلها موضوعات مهمة تناولها المؤلف بأسلوبه الشيق وقدرته العلمية الفائقة، ولذلك فإن الكتاب يستحق القراءة بكل تمعن، كما أن المؤلف يستحق أن يقرأ له، والاطلاع على أفكاره وتحليلاته العميقة.